مدينة الخرطوم تحت الحكم المصرى

فى الفترة مابين ١٨٢٠ ، ١٨٩٩

دكتور / السيد يوسف نصر
مدرس التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة أسيوط — كلية الآداب

لم يكن للخرطوم ذكر أو أهمية قبل الفتح المصرى للسودان ، فلم تكن مدينة بالمعنى المعروف حديثا ، تضم العديد من المحال التجارية والأبنية والدواوين ، بل كانت على عكس ذلك تماما ، فقد كانت عبارة عن حلة صغيرة لايزيد عدد منازلها عن عشرة منازل بنيت من الطين والقش والجلود وأغصان الأشجار(١) وكان سكانها لايمثلون الا عددا قليلا من الصيادين ، وندلل على ذلك بما ذكره أوفاهى وأسبولدنج حيث قال ما نصه :

Atenth century visitor to the region spoke of narrow Canals in the shade of the trees growing on the two banks and atraveller in about 1700 Commented that along the river Nile no formed city or village is to be encountered, rather, one house stands directly nextly to the other

وبما ذكره الرحالة الذين وصلوا إلى أفريقيا فى القرن الثامن (٢) عشر ، والتاسع عشر ، فلم يذكروا أى شيء عن حضارة الخرطوم فى هذه الفترة ، وكان من هؤلاء الرحالة الذين زاروا السودان فى القرن الثامن عشر الرحالة الإسكتلندى جيمس بروس الذى رغب فى الكشف عن منابع النيل الأزرق ، فقد تمكن من الوصول إلى مدينة غندار الحبشية ، ومكث بها بعض الوقت ، وتمكن خلال هذه الفترة من التعرف على عادات شعبها وتقاليده ، ثم تمكن بعد ذلك من الكشف عن بحيرة تانا ، ومن هناك تتبع مجرى النيل الأزرق حتى وصل إلى مدينة سنار ، ومكث بها أيضا بعض الوقت ، وتمكن من القاء الضوء على كافة النواحى الإجتماعية والإقتصادية والعسكرية لهذه المدينة ، وقد أعطانا صورة ملموسة عن حياة هذا الشعب

---

(١) السيد يوسف نصر ، دكتور : جهود مصر الكشفية فى افريقيا فى القرن التاسع عشر . ص ٢٩

(٢) O'Fahey, R.S. and Spaulding, J.L.:Kingdoms of the Sudan, Great Britain, 1974. P3.

وطرق معيشته ، وذكر أن سنار كانت بلدة جميلة ، وكل مايعيبها هو قسوة مناخها وبخاصة فى فصل الأمطار ، ونتيجة لذلك قرر بروس السفر إلى مصر مارا فى طريقه بالخرطوم التى لم يتحدث عنها لامن قريب ولا من بعيد ، فلو كان هناك مدينة تسمى بالخرطوم لتحدث عنها بروس ، أو لربما مكث بها بعض الوقت كما حدث فى سنار ، حتى ولو فرض على بروس هذا المكوث فرضا ، ولكنه مر دون أن يذكر لنا أى شيء عن هذه البلدة ، بل كل ماذكره إنه مر من خلال منطقة صحراوية وعرة وبعبارته :

"Ahead Lay 800 miles of unknown country, mostly desert, separating Sennar from the borders of Egypt at Aswan."

ومن هذه العبارة يتضح لنا أن الخرطوم لم يكن لها أى وجود يذكر قبل الفتح المصرى للسودان (١). ولدينا دليل آخر يثبت لنا أن الخرطوم كانت حلة صغيرة ، ويتمثل هذا الدليل فيما ذكره الرحالة جون لويس بركهارت John Lewis Burckhardt الذى زار السودان عام ١٨١٤ م ، والذى لم يذكر أثناء رحلته أى شيء عن الخرطوم مع أنه تحدث باستطراد عن شندى ، فوصف لنا سوقها العامرة بالناس والبضائع المختلفة التى كانت ترد اليها من إيطاليا والمانيا والهند ومصر والحبشة ، والأكثر من ذلك فأنه ذكر أنه يوجد فى شندى سوق للرقيق الأسود ، فكان يباع فيه الرقيق من مختلف الأجناس والأعمار ، وكانت العملة المتداولة هى عملة بربر أعنى الذرة والدمور ، أما العبيد والجمال فكانت تشترى بالريالات ، ولايتداول القوم من الريالات الا ماضرب فى أسبانيا ، ويسمونه الريال أبو مدفع وأبو عمود لأنه

1. Encyclopedia of discovery and the challenge of Africa Vol. 12. P. 38.

كان يرسم على الريال أما مدفعا و إما عمودا [١] . وكانت مهمة جون لويس بركهارت اللحاق بأية قافلة متجهة من أسوان إلى غرب افريقيا كى يكشف الغموض الذى خيم على نهر النيجر . وكذلك لم يشر سدنى أونسر الى مدينة الخرطوم عندما كتب عن منطقة النوبة فى العصور الحديثة أثناء رحلته من أسوان الى دارفور .

وهناك دليل آخر على أن الخرطوم لم تكن مدينة ، قبل الفتح المصرى للسودان ، فعندما وصل إسماعيل بن محمد على ، على رأس حملته إلى بلدة الحلفاية قابل ملكها الذى زوده بالمعلومات الخاصة بدولة الفونج (سنار) ولم يذكر له هذا الملك أى شيء عن مدينة الخرطوم ، مع أنها كانت قريبة جدا من الحلفاية .[٢] ومن الحلفاية إنتقل إسماعيل إلى أم درمان التى لم يكن لها أية أهمية تذكر ، ومنها انتقل الجنود المصريون إلى حلة صغيرة تتكون من عشرة بيوت فقط ، وكانت هذه الحلة توجد فى موقع الخرطوم الحالية [٣] ويؤكد الشيخ أحمد كاتب الشونة فى مخطوطته مانصه «أنه فى أول رمضان نزل المومى اليه (إسماعيل) بأم درمان ، الواقعة فى الجانب الغربى من النيل مقابل الخرطوم . وفى يوم ٦ رمضان نزل بحلة وحيدة ، قبالة المسلمية (وهى قرية الخرطوم)[٤] . وقد أيد ذلك ماذكره الأستاذ عبد الله حسين من أنه عندما أحتل إسماعيل أم درمان أقام جنوده فى حلة صغيرة تمثل موقع الخرطوم الحالية . [٥] ومن بعد إغتيال اسماعيل تولى حكم السودان البك

---

(١) جون لويس بركهارت، ترجمة فؤاد أندراوس : رحلات بركهارت فى بلاد النوبة والسودان . لندن ، عام ١٨١٩ م ص ٢٢٣ .

(٢) إدوار جوان : مصر فى القرن ١٩ ، تعريب محمد مسعود . ص ٦٤٤ — ٦٤٥

(٣) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على . ص ١٧٦

(٤) مكى شبيكة ، دكتور : السودان عبر القرون . ص ١٠٨ .

(٥) عبد الله حسين : السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية ، ج ١ ص ٨٧

الخرطوم على الخريطة رقم (٢) والتى توجد خلف ص ٦

الدفتردار الذى قام بحملات إستكشافية فى السودان . وفى ذلك الوقت لم تكن الخرطوم صالحة كمركز للحكمدارية ، لذلك غادرها الدفتردار إلى واد مدنى التى أصبحت عاصمة للبلاد (١) .

وفى عام ١٨٢٣ م ، وقع الإختيار على موقع مدينة الخرطوم الذى هيأه لسان الأرض الواقع بين النيلين الأبيض والأزرق ، لتكون معسكرا حربيا ثابتا (٢) . ويرتفع مستوى الخرطوم عن مستوى سطح البحر بنحو ١٤٥٠ قدما ، زيادة على ذلك فإنها تتمتع بموقع جغرافى هام .

ونظرا لهذه الأهمية من ناحية الموقع الذى يتوسط بلاد السودان ، فقد بدأت الأدارة المصرية فى تأسيس مدينة الخرطوم التى اشتملت على ثكنة كبيرة للجنود ، ومعمل للبارود وترسانة لبناء السفن ، ورصيف ، ومعدية تربط الخرطوم بأم درمان ، هذا إلى جانب تخصيص منطقة لدفن الموتى بعيدا عن المبانى السكنية ، كما بنى بها معمل لضرب الطوب الأحمر ، وتمثل هذه المبانى النواة الأولى لمدينة الخرطوم ، وبخاصة فى عهد محمد على ، ويمكن مراجعة ذلك على الخريطة المنشورة والموضوعة فى الصفحة الخامسة (٣) .

وبعد أن تم لمصر السيادة على السودان ، ووصل نفوذها جنوب الخرطوم حتى بلدة غندوكرو ، وبخاصة بعد نجاح حملات سليم قبودان التى ارسلت فى الفترة مابين ١٨٣٩ – ١٨٤٢ م ، وذلك بغرض الكشف عن منابع

---

1. Mandour El Mahdi : A short history of Sudan. P. 69.

(٢) هرست : النيل . ص ٢٨٥ .

(٣) أنظر الخريطة رقم (١) ص ٥ .

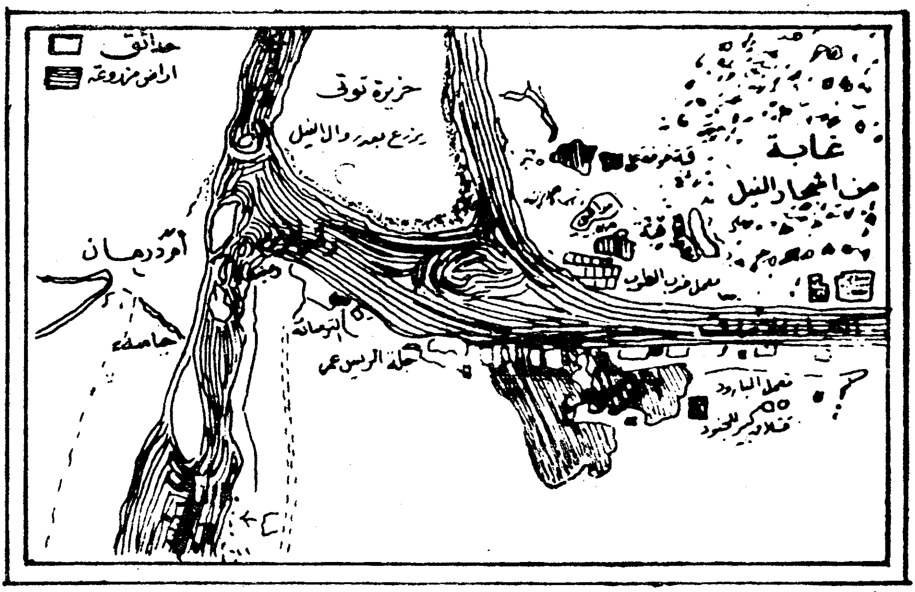

صورة الخريطة رقم (١)

هذه الخريطة خاصة بالخرطوم ، وقد رسمها المهندس الفرنسى دارنو عام ١٨٣٨ م ، والذى أقام فى السودان حتى عام ١٨٤٢ ، وهى توضح ثكنات الجيش ومصنع البارود ، ومضرب الطوب والترسانة وسرايا الحاكم ، وبعض المنازل الخاصة بالضباط المصريين . وقد رسمت هذه الخريطة فى عهد محمد على باشا ، وهى مستخرجة من كتاب الأستاذ عبد الرحمن الرافعى ، عصر محمد على ، ص ١٩٩ . (المؤلف السيد يوسف نصر) .

النيل الأبيض التى كان من نتائجها أيضا أن مهدت الطريق إلى الرحالة الأوربيين من الوصول إلى منطقة أعالى النيل ، والذين قاموا بتأسيس المراكز التجارية ، التى حولوها فيما بعد للإتجارفى الرقيق الأسودبدلا من ريش النعام والعاج (١)

ولكن عندما تولى خورشيد باشا حكم السودان ، وجه إهتمامه لعمران العاصمة التى كان لايزال يوجد بها بعض المنازل المبنية من القش ، وجلود البقر ، فقام ببناء مسجد من الطوب الأحمر ، ومقرا للحكومة ، وثكنة للجند . ولم يقتصر جهده على هذا العمل بل قام بتوزيع الاخشاب على الأهالى ليشيدوا منازلهم بالطريقة الحديثة (٢) .

وقد بلغ عدد سكان مدينة الخرطوم فى نهاية عصر محمدعلى حوالى ٣٠ ألف نسمة (٣) أى أنها كانت تعج بالحركة والنشاط .

ورغم كل هذا الجهد الذى قامت به مصر من أجل تشييد وترميم مبانى مدينة الخرطوم على أحدث النظم ، الا أن السكان الوطنيين كانوا لايهتمون بذلك كثيرا ، فنجدهم يشيدون منازلهم من الطين . دون مراعاة لشكل هذه المنازل ، ودون مراعاة أيضا لتنظيمها وتنسيقها ، فكانت شوارعها ضيقة وكثيرة التعاريج ، كما كانوا لايتركون نوافذ لهذه المنازل باستثناء الأبواب فقط ، مما يؤدى ذلك بالتالى إلى سوء تهويتها ، زيادة على ذلك فأنهم كانوا يقومون بحفر بعض الحفر فى الشوارع والأماكن الخالية ،

---

1. Pierre Crabites : Americans in the Egyptian Army. P. 29.

(٢) مكى شبيكه ، دكتور : المصدر السابق . ص ١١٦ .

3. Mandour El Mahdi : OP. Cit. P. 69.

وذلك ليتجمع فيها الماء ، وبخاصة أثناء موسم الأمطار ، لكى يستخدمونها فى الشرب ، ولكن سرعان ماتتحول هذه الحفر وبمرور الوقت إلى مستنقعات كريهة الرائحة ، فكانت تؤدى بالتالى إلى انتشار الأمراض ، بالإضافة إلى إعطاء صورة سيئة لمظهر المدينة الخارجى والداخلى ، ويبدو أن السبب فى ذلك يرجع إلى جهل السكان بفن العمارة الحديث (١)

وإلى جانب منازل الوطنيين فقد شيدت الأبنية الحكومية الخاصة بالموظفين الحكوميين ، والقصور التى كانت تتبع الأتراك والعرب ، كما بنى بها عدد من المقاهى ، ومحلات بيع الخمور . وكان أصحاب هذه المحلات (محلات الخمور) من الأوربيين الذين قدموا إلى السودان بعد الفتح المصرى ، زيادة على ذلك فأنه بنى هناك كنيسة للأقباط ، ومدرسة كاثوليكية ومستشفى (٢) .

وقد شجع الإستقرار الذى أعقب الفتح المصرى للسودان واستتباب الأمن عددا كبيرًا من الرحالة الأجانب على القدوم إلى السودان ، والتجول فى أنحائه ، وكان من هؤلاء الرحالة الأوربيين الرحالة Hay والرحالة هوشت Hoscht وبردهو Prudhoe ، وغيرهم كثيرين .

وتمثلت أهمية الخرطوم كعاصمة للسودان فى أنها تمثل موقعا إستراتيجيا وإداريا هاما ، فمنها يمكن السيطرة على كل من منطقة النيل الأبيض ،

---

1. Report on the Egyptian provinces of the Sudan, Red Sea and Equator. p. 122.
2. Ibid : p. 123.

والأزرق ، وكردفان ودارفور وسنار والتاكه ، وقد زودها هذا الموقع المتوسط بأن أصبحت مركزا تجاريًّا لكل التجارة التى تأتى إليها من إفريقيا الشرقية والوسطى ، فضلًا عن أنه كان من السهل على الحكمدار إرسال الحملات التأديبية دون إبطاء أو ضياع للوقت ، للقضاء على المتمردين فى أقرب وقت ممكن ، وفى عام ١٨٣٩ م ، أعلن رسميًّا بأن الخرطوم أصبحت عاصمة للسودان المصرى ، كما أنها أصبحت مركزا تجاريًّا هامًّا ، جذب إليه الكثير من التجار الأوربيين والشرقيين ، والكثير من المغامرين ، الذين أتوا إلى الخرطوم للاتجار فى العبيد(١) .

ولم تقتصر الإنشاءات فى مدينة الخرطوم على عصر محمد على فحسب بل أنه فى عهد عباس الأول ، شهدت الخرطوم بعض التحسينات التى أدخلت على ديوان الحكمدارية ، وديوان المديرية ، زيادة على ذلك فإنه بنى بها صيدلية وثكنتين للجند ، وأنشىء بها مدرسة كان لها أكبر الأثر فى النهضة الثقافية فيما بعد ، وتعتبر هذه المدرسة (مدرسة الخرطوم) أول مدرسة من نوعها تنشأ فى السودان ، الذى لم يشهد مثل هذا النوع من المدارس من قبل ، فكان نظام التعليم فى السودان قبل إنشاء هذه المدرسة ، يعتمد أساسا على الكتاتيب التى يتعلم فيها الأطفال القراءة والكتابة وحفظ القرآن ، وبلغ من ازدهار هذه المدرسة أن تحدث عنها الرحالة الإنجليزى جون هاملتون John Hamilton الذى زار السودان عام ١٨٥٣م ، والذى ذكر بأن هذه المدرسة كانت تضم ٨٤ تلميذا ، كانوا يدرسون القرآن الكريم واللغة العربية

(١) Mohammed Fouad Shukry : The khedieve Ismail and Slavery in the Sudan. pp. 71 - 72

والتركية وبعض الرياضيات ، ودهش من التقدم الملموس الذى حققه هؤلاء التلاميذ فى الفترة القصيرة التى انقضت على إفتتاح المدرسة وانتظامهم فيها .

وعلى الرغم مما وصلت إليه مدينة الخرطوم من تقدم وازدهار فى عصر محمد على وكل من عباس الأول ومحمد سعيد باشا ، إلَّا أن الخديو إسماعيل لم يرض عن موقعها المنخفض والذى كان يعرض مبانيها لرشح المياه الجوفية ، هذا إلى جانب تعرضها لفيضانات النيل، فى فصل الأمطار، وقد حدث أن أغرق فيضان النيل بعض أجزاء منها عام ١٨٦٦ م ، وعلى أثر هذا ، قرر إسماعيل ضرورة نقل الخرطوم من مكانها إلى مكان جديد ، وكان المكان الجديد المقترح لمدينة الخرطوم هو جزيرة توتى ، وذلك لصلاحيتها ، ويتضح ذلك جليًّا من خطاب الخديوى إسماعيل إلى حاكم عام السودان ، والذى جاء فيه ما نصه : « لقد وصل إلى سمعنا أنه نظرًا لانخفاض موقع الخرطوم وكثرة الرطوبة فى جوها ، حيث يظل مناخها رديئا جدًّا ، بخلاف جزيرة توتى التى تقابلها ، فهى طبقًا للروايات الصحيحة معتدلة الهواء للغاية ، ومن حيث الموقع فهى أصلح من الخرطوم كمقر للحكمدارية ، وقد فهمنا من إفادتكم الآنفة الذكر ، ومما وصل إلينا من الأخبار فإنه لا يوجد ببندر الخرطوم ما يستحق أن يسمى بناء ، وأن أكثر منازلها من الطوب النى والطين ، وكان البعض منها مبنيًّا من القش وما إليه ، وعليه فقد لاحظنا أنه من الهين نقل البلدة تدريجيًّا من موقعها الحالى إلى الجزيرة المقابلة ، فإن فى ذلك فوائد جمة،فإذا كانت الجزيرة المذكورة تصلح أكثر من الخرطوم لاتخاذها مركزا ، أو كان فى الإمكان نقل الخرطوم إليها ، فإننا نحيل على رأيكم وهمتكم أمر القيام بهذه المهمة » . ويمكن مرجعة الموقع القديم لمدينة الخرطوم على الخريطة رقم (٢) والتى توجد خلف ص ٩ .

ومن هذا يتضح لنا أن موقع الخرطوم لم يكن موقعا ملائما بسبب إنخفاضه وقربه من المياه الجوفية وتعرضه لفيضان النيل وبخاصة فى موسم الأمطار ، ولكن على الرغم من مطلب الخديوى إسماعيل بنقل مدينة الخرطوم إلى جزيرة توتى ، إلّا أن جعفر باشا مظهر حكمدار السودان فى عهد الخديوى اسماعيل عارض فكرة نقل العاصمة إلى مكان جديد ، وركز إهتمامه على ترميم المبانى الآيلة للسقوط ، وإعادة تخطيط شوارعها ، بالإضافة إلى الاهتمام بالمدن الأخرى ، مثل دنقله وبربر والأبيض وكسلا وسواكن ومصوع ، فأعاد تخطيط كل مدينة ، وأمر بزراعة الأشجار على جوانب شوارعها ، كما شجع الأهالى على بناء منازلهم على النمط الحديث(١) .

ويبدو أن إسماعيل أصر على موقفه ، ودليلنا على ذلك أنه طلب من حكمدار السودان ، أن يقوم ببناء مستشفى فى مكان مناسب كما أمره بإنشاء ثكنة للجيش ، ويتضح ذلك من خطابه إلى الحكمدار ، والذى جاء فيه ما نصه : « أما المستشفى فيجب أن ينشأ فى مكان طليق الهواء فسيح الجنبات ، وأن يكون له حديقة ، وكذلك القشلاق ، فيجب أن ينشأ فى موقع مناسب بعيدا عن البلدة ، واعملوا على أن تكون الشوارع متسعة منظمة ، وأن تنشأ المبانى بطريقة تتفق مع قواعد الصحة ، وفن الهندسة ، ولا تتركوا مياه السيول التى تنزل إلى البلدة من جراء شدة الأمطار متراكمة فيها ، بل إجعلوا لها مصارف تسيل فيها إلى البحر وجنبوا البلدة شرها (٢) » .

---

(١) شوقى الجمل ، دكتور : تاريخ سودان وادى النيل ، ج ٢ . ص ٦٦ ، ٦٧ ، ١١٣ ، ١٥٥

(٢) مكى شبيكة ، دكتور : المصدر السابق . ص ١٦٥ .

ويتضح لنا من هذا الخطاب مدى اهتمام الخديوى إسماعيل بمدينة الخرطوم والعمل على تحسينها وتنظيمها ، زيادة على ذلك فإنه طلب من حكمدار السودان أن يبيع الطوب والحجارة والجير والبلاط والخشب للأهالى بالثمن الأساسى وبدون ربح (١) .

واستمرت الخرطوم فى الازدهار ، فكان يحيط بها الحدائق الجميلة والحصون العسكرية والجسور التى أنشأتها الإدارة المصرية ، وذلك لحماية المدينة من أخطار الفيضانات ، ويتضح ذلك من خريطة رسمت للخرطوم عام ١٨٨٣ م . فقد وضح على هذه الخريطة مبانى المدينة وبعض الحدائق والطوابى العسكرية . ربما من المحتمل أن تكون هذه الطوابى قد أُنشئت بسبب قيام الثورة المهدية فى جزيرة أبا عام ١٨٨١ م . ووضح على الخريطة أيضًا جزيرة ضخمة تعترض مجرى النهر (النيل الأبيض) وبخاصة عند التقائه بالنيل الأزرق ، ومن المرجح أن تكون هذه الجزيرة هى التى قدمت إليها قوات إسماعيل بن محمد على ، بعد أن احتلت أم درمان وعسكرت بها بعض الوقت ، ومن الواضح أن هذه الجزيرة تعمل على عرقلة الملاحة النيلية فى هذه المنطقة من النيل . ويظهر على الخريطة أيضا موقع بلدة أم درمان وهى على مسافة قريبة من مدينة الخرطوم . وقد رسمت هذه الخريطة بمعرفة الصاغقول أغاسى مهندس حرب حسين راشد ، التابع لفرقة السفرية التابعة لمصلحة الهندسة الحربية فى يوم ٥ مايو عام ١٨٨٣ م ، الموافق ٢٩ جمادى الاخر عام ١٣٠٠هـ (٢) ويمكن مراجعة هذه الخريطة خلف صفحة (١١) .

---

(١) نفس المصدر : ص ١٦٥

(٢) انظر الخريطة رقم (٣) خلف ص ١١

وهكذا ظلت مدينة الخرطوم مزدهرة طوال الحكم المصرى إلى أن دمرت بواسطة الدراويش فى يوم ٢٥ من شهر يناير عام ١٨٨٥ م ، نتيجة لسياسة غردون الحمقاء ، التى راح هو ضحيتها ، وكان يبلغ عدد سكانها فى تلك الفترة ١٢٤٫٠٠٠ نسمة (١)

ولم تستمر مدينة الخرطوم عاصمة للمهديين مدة طويلة ، فقد عادت مرة أخرى إلى السيادة المصرية ، وبخاصة بعد أن زحفت القوات المصرية على السودان فى الفترة ما بين عام ١٨٩٤ وحتى عام ١٨٩٩ م . وبعد عمليات الاسترداد أصبحت مدينة الخرطوم تعج بالحركة والنشاط ، وتكاد تكون خالية من العشش المبنية من القش والطين وجلود الماشية ، فأصبحت تتخللها الشوارع المستقيمة والميادين الفسيحة والمبانى الجميلة ، التى كان منها مبنى الحكمدارية ومقر الحكمدار ، والسكرتير المالى ، ومدير الزراعة والتلغراف والأشغال ، بالإضافة إلى وجود عدد من الدكاكين والورش ، كما وجد بها أيضًا مسجد ومصنع ألبان ، وخزان للمياه النقية ، ومبنى لكلية غردون وبعض الأندية الخاصة بالضباط المصريين والإنجليز ، كما بنى بها ترسانة لإصلاح وبناء السفن ، وبنى بها أيضًا مستشفى ، زيادة على ذلك فإن مدينة الخرطوم كانت محاطة بعدد من الثكنات العسكرية ، يبدو أنها شيدت لحمايتها من أى غزو خارجى ، ففى الغرب توجد ثكنة الأورطة الأولى ، وإلى الشمال منها توجد ثكنة الأورطة الخامسة ومن بعدها توجد ثكنة الأورطة السادسة ، وإلى الشرق من المدينة توجد ثكنة الكتيبة السادسة عشر ، وكان من أشهر ميادينها فى ذلك الوقت ميدان عباس الذى يتوسط المدينة ويمر من خلاله طريق كرومر ،

---

(١) Foremon. J.B. : Collins, national Encyclopedia. p. 223.

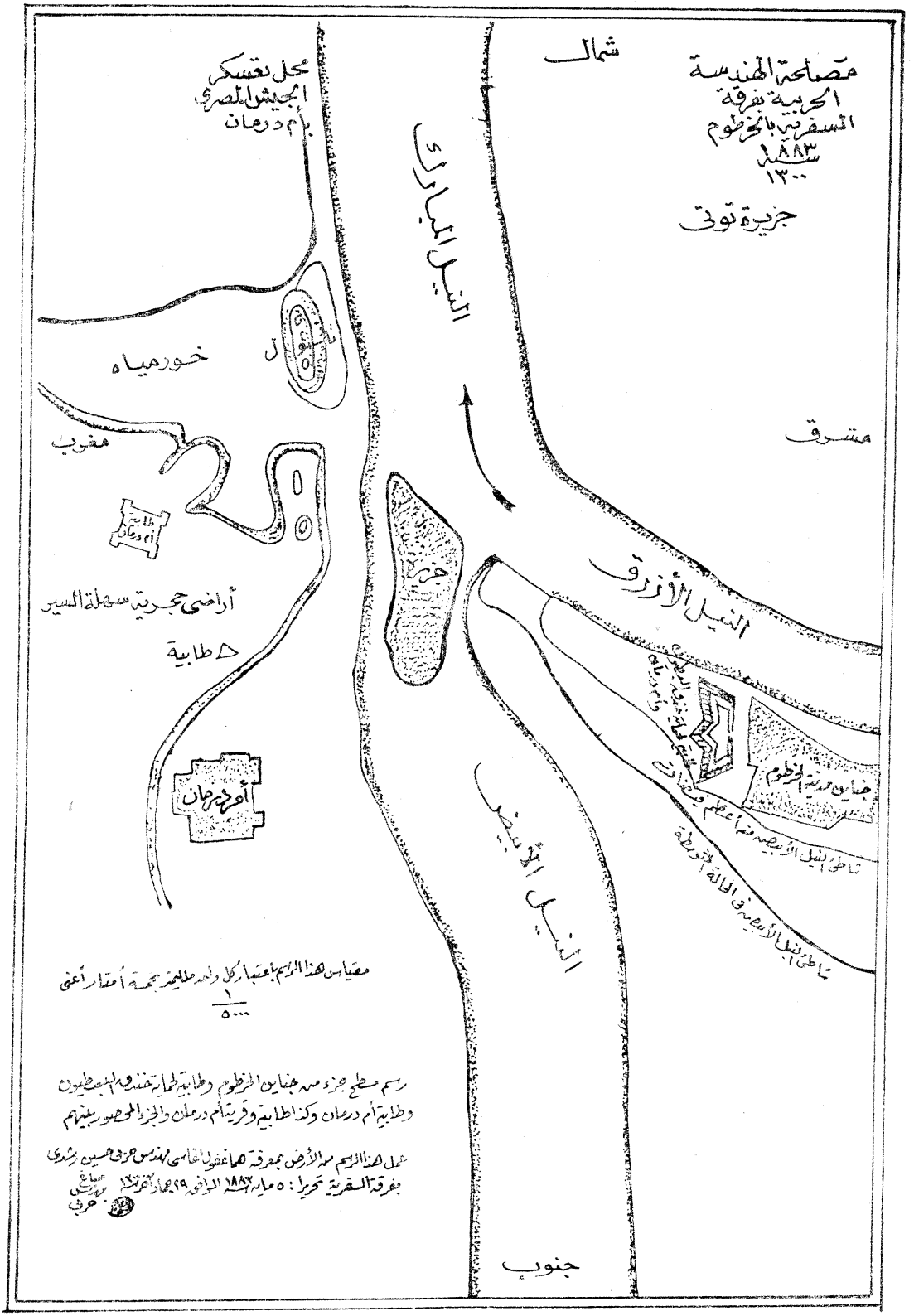

صورة الخريطة رقم (٣)

هذه الخريطة تمثل مدينة الخرطوم ، ويتوضح عليها جنابن المدينة ، وطابية لحماية خندق البطيون وأم درمان ، ويتوضح عليها أيضا النيل الأبيض بشواطئه الثلاثة التى توضح إرتفاع تدرج منسوب مياه النيل الأبيض فى ذروة موسم الفيضان . ويتوضح عليها كذلك معسكر الجيش المصرى فى أم درمان ، وطابية أم درمان ، ويتوضح عليها جزيرة تعترض مجرى النيل الأبيض وبخاصة عند التقائه بالنيل

وهكذا ظلت مدينة الخرطوم مزدهرة طوال الحكم المصر
بواسطة الدراويش فى يوم ٢٥ من شهر يناير عام ١٨٨٥ م ، نتيـ
غردون الحمقاء ، التى راح هو ضحيتها ، وكان يبلغ عدد سكانها فى
الفترة ١٢٤٫٠٠٠ نسمة (١)

ولم تستمر مدينة الخرطوم عاصمة للمهديين مدة طويلة ، فقد عادت مرة أخرى إلى السيادة المصرية ، وبخاصة بعد أن زحفت القوات المصرية على السودان فى الفترة ما بين عام ١٨٩٤ وحتى عام ١٨٩٩ م . وبعد عمليات الاسترداد أصبحت مدينة الخرطوم تعج بالحركة والنشاط ، وتكاد تكون خالية من العشش المبنية من القش والطين وجلود الماشية ، فأصبحت تتخللها الشوارع المستقيمة والميادين الفسيحة والمبانى الجميلة ، التى كان منها مبنى الحكمدارية ومقر الحكمدار ، والسكرتير المالى ، ومدير الزراعة والتلغراف والأشغال ، بالإضافة إلى وجود عدد من الدكاكين والورش ، كما وجد بها أيضًا مسجد ومصنع ألبان ، وخزان للمياه النقية ، ومبنى لكلية غردون وبعض الأندية الخاصة بالضباط المصريين والإنجليز ، كما بنى بها ترسانة لإصلاح وبناء السفن ، وبنى بها أيضًا مستشفى ، زيادة على ذلك فإن مدينة الخرطوم كانت محاطة بعدد من الثكنات العسكرية ، يبدو أنها شيدت لحمايتها من أى غزو خارجى ، ففى الغرب توجد ثكنة الأورطة الأولى ، وإلى الشمال منها توجد ثكنة الأورطة الخامسة ومن بعدها توجد ثكنة الأورطة السادسة ، وإلى الشرق من المدينة توجد ثكنة الكتيبة السادسة عشر ، وكان من أشهر ميادينها فى ذلك الوقت ميدان عباس الذى يتوسط المدينة ويمر من خلاله طريق كرومر ،

(١) Foremon. J.B. : Collins, national Encyclopedia. p. 223.

وشارع فيكتوريا .وشارع السردار ، ومن الشوارع الرئيسية الطريق القديم ، وشارع كتشنر ، ويوجد بها أيضا سوق وفندق ، ويتضح ذلك من الخريطة التى رسمت بمعرفة أحد الضباط الإنجليز عام ١٩٠٠ م (١) ويمكن مراجعتها خلف ص ١٣ .

ومن الملاحظ أن شوارع الخرطوم فى هذه الفترة كانت تحمل أسماء إنجليزية ولم يحمل أى منها أى إسم مصرى . ويبدو أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن مصر كانت مستعمرة إنجليزية ، فكان لبريطانيا الأمر والنهى فى هذه المستعمرة .

ولكن فيما بعد شوهد بالخرطوم عدد من الشوارع التى تحمل أسماء عربية ، مثل شارع موسى باشا وشارع عبد العزيز ، وإلى الشمال منه يوجد شارع محمد على وشارع عباس ، ووجدت بعض الشوارع التى تحمل أسماء أوربية مثل شارع موريتز باشا ، وشارع فيكتوريا ، كما وجد بها بعض الأبنية الأخرى الممثلة فى مكتب للبريد ومبنى لبنك مصر(٢) ، وقد وضع تمثال لغردون فى ميدان — الخرطوم (٣) ويتضح ذلك من مراجعة الخريطة رقم (٥) خلف ص ١٣ .

وبعد هذه الدراسة يتضح لنا أن مدينة الخرطوم أصبحت مدينة حديثة ، تتمثل فيها كافة المنشآت الهامة والميادين والحدائق العامة ، والمبانى الحجرية والشوارع المستقيمة . ويرجع الفضل فى ذلك إلى مجهودات الإدارة المصرية التى أخذت على عاتقها تطوير البلاد السودانية التى خضعت للنفوذ المصرى . وتمثل مدينة الخرطوم جانبا من الجوانب الحضارية الهامة ، التى حظيت

---

(٢) انظر الخريطة رقم (٤) خلف ص ١٣ .

(٢) هذا البنك بخلاف بنك مصر الذى أسسه طلعت حرب عام ١٩٢٠ م ، ومن المحتمل أن يكون هذا البنك ، قد أسس بمعرفه بريطانيا ويحمل اسم مصر. The Bank of Egypt (المؤلف)

(٣) أنظر الخريطة رقم (٥) خلف ص ١٣ .

بها معظم البلدان الإفريقية ، فتعتبر الخرطوم بحق ثمرة من ثمار الوجود المصرى فى السودان . ولم يقتصر العمران على مدينة الخرطوم فحسب، بل شمل العديد من المدن السودانية خاصة والإفريقية عامة ، مثل مدينة واد مدنى ومدينة محمد على فى فازوغلى ، ومدينة كسلا ومصوع وبربرة وغيرها كثير . ولا زالت الخرطوم تمثل عاصمة للسودان الحديث .

Summary of Khartoum City

After the departure of the Daftardar, Khartoum's houses were built of branches of trees and hides. Ten years after the Conquest, Khartoum became definitely the seat of the Sudan Government. The city of Sennar had previously held that position, but owing to its insalubrity, the governors-general moved their quarters to Wad Medine shortly afterwards. In 1830 Khurshid pasha chosed the confluence of the White and Blue Niles as a quarter for his officers to watch over the operations of the two armies, he had despatched to Taka and Kordofan. He built a munition store and a private residence; and thus was founded the city of Khartoum for strategical and administrative purposes. The choice of Khartoum, was agood ideal. It is Commanding the White and Blue Niles, with Sennar and Taka on one side, Kordofan and Darfour on the other, its central position made it an emporium for all the trade that came from central and Estern Africa. From Khartoum the governors general were able with more efficiency to keep awatchful eye on the neighbouring provinces, while punitive expeditions were easily fitted out and despatched without loss of time whenever tidings came of the numerous local risings that broke out during that particular period. Within ten years the population of Khartoum increased enormously. In 1839 the town was formally declared the capital of the Egyptian Sudan. As a prominant trading centre Khartoum had attracted many Levantine and European merchants as well as adventurers. It had by that time already gaind a notoriety for being one of the leading markets for the sale and purchase of slaves and ivory. There seems no doubt that this unenviable reputation was acquired owing to the administration of the conquerers.

In the capital, the government built a hospital and barracks and planned the streets and made them wider. The native population in the capital were encouraged to build better houses. The government sold them bricks, stones and other building materials at cost, so that the standard of housing might be raised.

Khartoum had destroyed during the Darvishes rebellion of 1885 where general Gordon was killed. The Anglo-Egyptian armies had recovered the Sudan, in the same time, the two government had repaired the ruins which were made by the Darvishes armies.

The town, as approached from the White river, presents a mass of dirty grey houses, overtopped by a single minaret, and in front lies a sterile sandy plain without trees or bushes. It is entered by a long narrow street, stretching from west to east and terminating in the market. This street is dirty in the extreme, and bordered by mud houses, whose doors are their only openings to the street. In other parts of the town there is no semblance of regularity; the houses are of all sizes and shapes, and the streets mere labyrinths. Here and there are open spaces large enough for gardens, and even for corn-fields.

The street above mentioned is the best in Khartoum; it contains the Governor, is residence, and many spacious mansions belonging to Turks, Copts, and Arabs. All the other houses are of a miserable description, consisting of sun- dried clay, cemented with cow-dung and slime. In the market-place the mosque is built of brick, and here also are the bazar, coffee-houses, brandy shops. In addition to the buildings already mentioned there is a Coptic and a Roman Catholic chapel, a Roman Catholic shool, an infirmary, a gaol, and barracks. In 1899, Khartoum was ruled by England and Egypt.

Dr. El Sayed Youssef Nassr

History and African Studies Department.

المصادر

(ا) المصادر العربية :

١ ـ السيد يوسف نصر ، دكتور: جهود مصر الكشفية فى إفريقيا فى القرن التاسع عشر . القاهرة ، عام ١٩٧٩ م .

٢ ـ ادوارد جوان ، تعريب محمد مسعود : مصر فى القرن التاسع عشر . القاهرة ، عام ١٩٢١ م .

٣ ـ جون لويس بركهارت ، ترجمة فؤاد آندراوس : رحلات بركهارت فى بلاد النوبة والسودان ، لندن عام ، ١٨١٩ م .

٤ ـ شوقى عطا الله الجمل ، دكتور :تاريخ سودان وادى النيل ،الجزء الثانى . القاهرة عام ١٩٦٩ م .

٥ ـ عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، الطبعة الثالثة . القاهرة ، عام ١٩٥١ م .

٦ ـ عبد الله حسين : السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية . القاهرة ، عام ١٩٣٥ م .

٧ ـ مكى شبيكة ، دكتور :السودان عبر القرون . بيروت ، عام ١٩٦٤ م .

٨ ـ هرست ، ترجمة أحمد الشربينى : النيل . القاهرة عام ١٩٥٢ م .

٩ ـ خرائط خاصة بمدينة الخرطوم وهى تحت أرقام ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥